القسم الأول

# الغرب ووَحدة البحر المتوسط

تناولنا في المجـــلد الاول من هــذه الموسوعة الكلام في حضارة الشرق الادنى الى بزوغ النصرانية . فعلينا الآن ونحن نتعرض لدراسة الغرب ، ان نعود القهقرى قليلاً الى الوراء ، ما يقرب من ألف سنة .

تاريخ المدنيات وتوقيتها التاريخي

التوقيت الزمني هو قوام التاريخ وهيكله . ولذا كان من اولى واجبات المؤلف ان يراعي أحكام هذا التوقيت ويأخذ باصوله المرعية . إلاّ ان التاريخ سلسلة متلاحقة الحلقات ، قوامها ترابط الوقائع والماجريات على اختلاف انواعها . فالقضايا التي يثيرها ، تنوء عن الحلول المرتجلة . فاذا كانت معرفة الاشياء من الامور التي لا بد منها ، فتفهم الوقائع ، وفحصها ، وتحليلها ، اجدى للمرء وادعى . والحال ، ان تفهم الحضارة واكتناه جوهرها لا يستدعي الوقوف على المدنيات التي عاصرتها الا بنسبة ما كان لها من اثر بارز في هذه الحضارة . هنالك شعوب ينتظمها مدى جغرافي واحد ، الا انه قد لا يقوم بينها علائق وصلات ، وان قام شيء من هذا فمن ذلك النوع السطحي . وهذه المؤثرات قد لا يكون لها من الشأن الا بمقدار ما هي ذات اتجاه معين . هنالك مدنيات معطاءة ، تعطي الغير ، الكثير من ذاتها او من ذات يدها ولكن قلما تأخذ هي منه او تقبس عنه . ذلك هو في الواقع حال المدنيات القديمة التي قامت بالنسبة للاحقة منها ، بدور المهذب او المربي . وهكذا أُلِف الناس النظر اليها وذلك لما لها من الاعراف والتقاليد التي يقدسها المريدون والأتبـــاع . وهذان المدلولان اللذان لا بد من ان يتوفرا معاً ، هما شديدا الاتصال بعضهما ببعض ، الا ان ترابطها المنطقي المكين لا يقوى على الثبات والاستمرار اذا ما انفصل احدهما عن الآخر .

استمرار مدنيـــات الشرق الادنى

هذا هو بالفعل وضع مدنيات الشرق الادنى الغابرة بالنسبة للغرب ، اذ اننا نشاهد بعض هذه المدنيات قائماً قبل عام ٣٠٠٠ ، وليس في غربي البحر المتوسط كله ما يمكن مقارنته بها ، ولو من بعيد. وهذه المدنيات تستمر اجيالاً متطاولة ، متعاقبة ، حية ناشطة ، دون ان تجدد من شبابها الا ما ندر ، لا تشعر او قلما تشعر بالقوى الجديدة والمؤثرات المطلة من البلدان المجاورة حتى في حال بسط سيطرتها عليها ، فكيف بها تنفتح لمؤثرات بعيدة تعمل بالواسطة ؟ اما مدنيات الشرق الادنى التي هي احدث عهداً ممـا سبقها على رقعة الشرق عامة ، فهي لا تقتبس ولا تأخذ الا ممـــا تقدمها من المدنيات الغابرة . فليس في الغرب المتأخر في نظرها ما يدعو للقبس والتقليد .

فالمدنية اليونانية بنوع خاص ، لا ترى في الاقطار الواقعة منها الى الغرب ، سوى اراض

تصلح للاستعمار والاستثمار ، تقع عليها كلما سنحت منها الظروف ومكنت لها صروف الدهر ، فترسل اليها الجوالي في اثر الجوالي بالعدد الكافي ، والا قنعت منها باستغلالها تجاريا بالحصول على محاصيل الارض فيها، او بجعلها سوقاً تُنفّق فيها مصنوعاتها وما تحمله اليها من سلع وخرضاوات. وما عدا ذلك ، فلا ترى في هذه الاقطار شيئاً يستحق الاهتمام له او المحافظة عليه ، فهي بالفعل لا تأخذ شيئاً منها . فهذا الشرق المترامي الاطراف ، المتعدد الثروات ، المحير للعقول بما بلغت اليه حضاراته من الرقاه والنعمى ، الآخذ بمجامع القلوب بما حقق من انجازات جبارة، والمسيطر على العقول بما بلغت فيه الاديان من العقائد ومناسك العبادة والاحتفالات السامية، والذي يفرض الاحترام لشدة اطلاعه على اسرار الطبيعة ومعمياتها، هذا الشرق، عرف منذ عهد بعيد ان يشبع ما في الاغريق من عطش الى المعرفة ، ومن توق شديد الى الاطلاع على الحضارات الاجنبية . فاي داع بعد هذا ، يحفزهم لعمري ، على الاقتباس من قرطاجة مثلاً ، بينما تكون صور على قيد بضع مراحل منهم ؟ وتروي بعض المصادر التاريخية ان الاسكندر الكبير ، كان يحتر ، قبل وفاته بقليل، فكرة القيام بحملة واسعة تحمله ورجاله ، بحركة التفاف حول القارة الافريقية او عن طريق مصر وقرطاجة ، الى اعمدة هرقل ( جبل طارق ) ليعود منها الى اليونان عبر شبه إيبيريا ( اسبانيا ) وغاليا ( فرنسا ) وايطاليا . فلو صح الحلم واستطاع العاهل المقدوني تحقيق معالم هذه الصورة الجغرافية التي ارتسمت في ذهنه وطالما راودت خياله الجموح ، لعاد ذلك على الحضارة الهلينية بخصائص ومميزات غير التي طبعتها ففردتها. فلو كان هنالك امرؤ ما ، يستطيع الكشف عن افكار مخبوءة يمكن الانتفاع بها في الغرب المخشوشن، لكان هو الاسكندر نفسه الذي عرف ان يكشف ما خفي من مخبوءات الفكر والعلم والثقافة حينما اجتاحت جحافله بلاد ايران الشاسعة . الا ان خلفاءه الذين لم يكن بينهم من يدانيه ، من بعيد او قريب ، نبوغاً حربياً ولا ثقافياً، قبعوا خاملين في الاراضي التي دوخها لهم ، واستكانوا الى ما قيضت لهم الاقدار من ملك وسلطان ، فاقتصرت الحضارة الهلينية على التمكين للروابط التي اقامتهـــا من قبل الحضارة الاغريقية في دوريها البارزين من تاريخها القديم والكلاسيكي العتيد .

تأثير الشرق المتوسط على الغرب

غير ان عدم الاخذ لا يمنع العطاء. وبالفعل هنالك عدد من مدنيات الشرق الادنى امدت او، بالاحرى ، شجعت المدنيـــات الغربية الناشئة ، على الاخذ والقبس . فقد قامت في افريقيا تجاه المضيق الذي يفصل بين حوضي البحر المتوسط ، مدينة قرطاجة ، احدى انشاءات مدينة صور . والوجود الاغريقي الذي قام في الغرب ممثلاً بهذا العديد من المستعمرات اليونانية التي ازدهرت في جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية ، تبلور عن كتلة من الجوالي اليونانية زخرت حيوية ونشاطاً ، كما قدّم العديد من هـذه الجوالي اليونانية في جنوبي غاليا وغربي اسبانيا وجنوبيها . فالشرق السامي والايجي بعث الى الغرب بجاليات اخذت تنتظم على شاكلة المدن الام التي انشطرت عنها ، واقتصرت في تكيفها بالمحيط الجديد على الحد الادنى . الا ان هذه المجتمعات الناشئة في تربة جديدة وبيئات جديدة، أثرت

عميقاً بسلكها وتصرفها ، في غير جهد ولا عناء ، على الشعوب التي عاشت بينها ، وذلك بما كان للحضارة التي تحملها وتنعم بها من سمو وعلو شأن ، فنشرت حولهـا شيئاً من النظم السياسية والاقتصادية ، التي كانت تأخذ بها وتعتمدهـــا في عيشها ، كما نشرت الكثير من الاعتقادات والافكار والاذواق والاعراف التي قال بها سكان هذه المستعمرات وساروا عليها .

وقد حدث الى جانب هذا كله ، بفضل هذه الجوالي اليونانية ، تأثيرات تمت بالمداورة ، اي بمعزل عن وجود ممثلي هذه المدنيات ، اذ قام الاغريق والقرطاجيون بدور السماسرة . وبواسطتهم عرف سكان الغرب ، اذ ذاك ، وجهاً من وجوه الشرق اكثر انطواءً من المألوف ، واقل تعبيراً . وليس من الضروري القول مع القائلين ان الاتروسك جيل جاء اصلاً من آسيا الصغرى ، لندرك كيف ان الفن الاتروسكي ، كصنوه الفن الاغريقي القديم ، مر بدور « متمشرق » .

والحق يقال ان هذين العاملين ليسا على قدم واحد من المساواة . فالواحد منهما يستخف بالفعل ، بالآخر ويزدريه حتى في الحالات التي تقبس فيهـا مدنيات الشرق الاوسط من الغرب . فجذورها لا تُغْرِق ولا توغل الا في تربة شرقية . فهي لا تختار نماذجها ولا تتخير عناصرها المقومة الا من الشرق . والامر الذي لا يمارى فيـه قط ان بعض هذه المدنيات الشرقية تتطور بخطى حثيثة قلمـــا عرفت مدنيات الغرب مثلها ، بعد ان عرفت كيف تفيد من ظروف اكثر ملاءمة ، ومن التقدم الذي حققته المدنيات التي سبقتها الى الوجود في سلم الحضارة ومضمار الحياة . وهكذا قدمت هذه المدنيات للعالم البعيد عنها نماذج يستلهمها ، وصوراً يترسمها وينسج على منوالها عندما يستيقظ عنده الوعي وتستشرى فيه الحياة وتندفع نحو الخلق والابداع . ففي الحين الذي افرغت فيه المدنية الهلينية ، في بوتقة واحدة ، الاختبارات التي جمعتها وألّفت بين المثل التي اخذتها عن بلدان الشرق الادنى ، عمدت الى صهر هذا كله في إلفة مثالية كان لها من شديد الوقع ما سحر مدنيات الغرب الناشئة ، فراحت تتكيف به وتتأثر معه بعيداً ، حتى عندما رأت الحد من هذا التأثير ، والصمود له والوقوف في وجهه .

ومع ذلك إيانا والمغالاة . فالكلام عن شرق رائد وغرب سائر في ركابه ، وعن شرق مهذّب معلّم ، وغرب متتلمذ له ومقتبس منه ، يذهب بالكثير من مفارقات المعنى ، والمدلول . فالغرب لن يفقد أصالته في هذا القبس ، بل الامر على عكس ذلك تماماً . فبعد ان دقت هذه الاصالة طويلاً واسترقت ، راحت هذه المدنيات تعيد منها صلابة العود ، عندما دب اليها رسيس الحياة وجاش فيها النشاط من جديد ، في مطلع العهد المسيحي ، الى ان قضت الاقدار على هذين العالمين بالانفصال والسير كل منهما في اتجاه مستقل معاكس . فالى هذا التاريخ كانت حركة القبس ناشطة باستمرار ، ولا سيما في الحقل الثقـــافي . ففي هذه الملاحظة كفاية لتبرير الفارق الزمني البدائي بين المجلد الاول والثاني من مجلدات هذه الموسوعة التاريخية . فقبل قيام الامبراطورية الرومانية ، كانت مَدنيات الشرق الادنى ، تكفي نفسها بنفسها ، وتتعارف فيما بينها وتتفاهم

قبل ان تتعرف الى مدنيات الغرب ، الا ان العكس لا يصح مطلقاً . فعبثاً نحاول فهم مدنيات الغرب ما لم ندرس مدنيات الشرق ونطلع عن كثب ، على تاريخها المجيد .

وحدة سابقة لاوانها في الشرق الادنى وانقسام مستمر في الغرب

من المفارقات القائمة بين الشرق والغرب مفارقة لا ترتبط بشيء بالسابقة ، اذ ليس ما يرغم المجتمعات الغربية ولا ما يجبر المدنيـــات على التطور والسير بها نحو الوحدة . ففي اواخر القرن الرابع ومطلع القرن الثالث قبل الميلاد، استطاع الاسكندر إنشاء وحدة سياسية، حافظ عليها خلفاؤه من بعده ، تألفت مقوماتها من هذه الاقطار التي لعبت شعوبها ، بصورة مباشرة ، فعالة، دوراً بارزاً – وليس عارضاً – في تاريخ الشرق الادنى . وفي ظل هذه الوحدة السياسية برزت مدنية موحـــدة هيمنت على الشرق بكامله وطبعته بطـــابعها . فالشرق الكلاسيكي ، لم يعد مجرد صيغة او صورة من خلق المعلمين ، متقطع الاوصال الجغرافية . فقد اصبح هذا الشرق الواحد حقيقة واقعية ، حية ، نابضة – لها ككل كائن حي ، شوائبها – كما لكل مجتمع بشري قائم، نواقصه. ولهذه الوحدة المتحيزة، من الكمالات ومن الملء، ما يتضاءل حيالها – كل ما قام او عرف من نظائرها في التاريخ، من قبل .

والحال ، فقد شهد الغرب، في هذه الحقبة قيام مدنيات لا يمكن تجاهلها ، او التغاضي عنها . مع ان بعضها شاخ واندثر ، الا ان القوى المبدعة في هذا الغرب لم تنضب يومـــاً ولم تجف ، ولم تصب بالعقم او القحط . فاذا كانت حضارة الاتروسك الزاهرة ، قد غلفهـــا التاريخ ولفها بقمط النسيان ، مع ان عهدهـــا لا يزال في الخواطر طرياً ، وفي مرأى العين ، فمدنيّة قرطاجة هي الاخرى ، في أبّان زهوها وازدهارها، وروما بدورها ، قطعت ، في هذا السبيل شوطاً بعيداً ، بينما يؤلف الغاليون ، من ناحيتهم ، قوة مادية هائلة بالرغم مما يعتورها من قلة التنظيم ، بعثت الفزع والرعب ببطشها وبأسها . وليس مـــا يحول دون بلوغها يومـــاً من الايام التنظيم المرتجى ، فتصبح إذ ذاك ، بالفعل ، بعبعاً يخشى شره . ففي الوقت الذي تمت فيه وحدة الشرق الادنى ، نرى الغرب شتيتاً ، متقطع الاوصال ، موزعاً بين مدنيات متباينة، تفاوتت درجة تطورها ، واختلفت حيويتها باختلاف منطلقها عبر الزمن . فوضع الغرب آنذاك ، شبيه من جميع الوجوه ، بالوضع الذي كان عليه عالم شرقي البحر المتوسط ، قبـــل ذلك بنحو ستة او سبعة قرون ، مع انه ليس وراء ماضي الغرب الذي غبر وانقضى ما يمكن مقارنته ، من قريب او من بعيد ، بهذه المدنيّات التي زهت وازدهرت في مصر، وبلاد ما بين النهرين ، وحوض بحر إيجه ، وما بلغته من تفوق عظيم .

وحدة البحر المتوسط لحساب روما

ومع هذا ، وبالرغم من هذا ، فالمستقبل يفترّ عن بسمة عريضة للغرب ، اذ ان الحصيلة الكبرى التي عادت بها الحقبة التاريخية التي ينتظمها القسم الاول من هذا المجلد ، هي إعداد وحدة أشمل واوسع ، بالرغم من عدم

دخول بلاد ما بين النهرين وايران فيها . إلا انها لعمري ، وحدة سياسية لا غير . الا ان الوحدة المدنية او الحضارية لن تتم بالسرعة ذاتها مع ان عوامل اليسر لا تنقصهـا . ولا بد ، والحالة هذه من حدوث واحدة من هاتين الوحدتين ، فيتاح للأخرى ان تخلق لنفسها الأطـر والملاكات التي لا بدّ منها للتطور والتقدم . فالفتح المظفر المبين الذي حققه الاسكندر من قبل ، مهّد لطلوع المدنية الهلينية . أما الفتح الاكبر الذي قامت به روما فهو الذي مكن من تحقيق الوحدة القوية التي عرفتها الامبراطورية الرومانية في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد .

علينا أن نقول بالحتمية التاريخية ، هنا ، الى الحـد الأبعد ، الى ما وراء الحدود التي يبلغ اليهـا منطق المؤرخ ، فنقرر ان الغرب كُتِبَ له لعب هذا الدور ، وقُدّر له السير في هذا الاتجاه . ومصير كهذا ، هو من فعـل عناصر بشرية ، مختلفة العروق ، بعضها شرقي الاصل والنشأة ، كقرطاجة مثلاً . والغرب في هذا السير المقدور غير مدين لأية هبة أو نعمة مجانية من الطبيعة ، وذلك بمـا ركز فيه من غرائز وخصائص مفرّدة. قد يرد بعضهم بروز الغرب وتجليه وتساميه الى ما فيه من قوى وقدرات ناشطة ، بينما أخذ الشرق يعاني أوصاب الشيخوخة . انها لعمري ، نظرة فاسدة لنشأة الشعوب يناهضها حيناً مائة دليل ، ويجرحهـا احياناً ألف دليل ودليل . ولعل أقربهـا طراً على الاطلاق الى الصواب ، حكاية الفتح الروماني . فمن ألِف هذه الحكاية الى يائها ، ومن بابها الى محرابها ، للمفاجأة ولغير المتوقع ، دور حاسم . صحيح ان المفاجيء والطارىء وما ليس في الحسبان ، عنصر ملازم لواقع الحرب وللأحلاف العسكرية والسياسية . فاذا ما استعرضنا التفاصيل ونظرنا ملياً في ماجريات التاريخ ، وجدنا ان اكثر من حلف واحد ، وان اكثر من موقعة حربية واحدة ، كان مصيرهما في كف عفريت او في ضمير القدر المجهول . هنالك أمور تصدم منطق موقعة او معركة حربية صدماً عنيفـاً . فبينما القدر المجهول يكتنف وضعاً حربياً او ظرفاً سياسياً ، ترى الدولة نفسها مرغمة على التدخـل عسكرياً في اليونان مثلاً أو في آسيا الصغرى ، قبل ان تظهر نتائج الاعمـال الحربية التي تنهض بهـا ضد قبائل اسبانيا والليغوريين الاشداء البأس ، فتنشىء روما ولاية لها من غاليا الجنوبية تشد بهـا بين اوصال ولاياتها في ايطاليا وبين الفتوحات التي دوختهـا جيوشها المظفرة في اسبانيا ، من نحو قرن ونصف ، وذلك بعد عدة سنين من انشاء ولاية مقدونيا وآسيا الصغرى . وفي سياسة روما ، الداخلية منها والخارجية ، على السواء ، اكثر من مثل نضربه لك ، يريك كيف ان كثيراً من النتائج التي امكن لروما اعتبارها نهائية ، كادت تصبح موضوع شك وتردد ، كما كان من شأنها ان تجعل مستقبل البلاد كله في خطر ماحق . بعد هذا ، يصح ان نتساءل : هل كانت الوحدة الرومانية لتتم ؟ ، وبمثل هذه السرعة ؟ ، وعلى مثل هذا النطاق الواسع ؟ ، ولحساب رومـا بالذات ؟ قد يكون مجازفاً مغروراً من يجيب بالايجاب عن هذه الاسئلة المحرجة .

فالقوى والعوامل الخفية التي تتحكم بمصائر الدول والشعوب ، هي التي جـاءت بالجواب

القاطع الجازم ، فقدمت لنا صورة لا شبيه لهـــا ولا نظير ، من الرقي والتطور الذي بلغته الانسانية في عهد روما ، كان له من النتائج العظيمة الضخمة ما لم يسبق للتاريخ ان سجل مثلها او عرف ما يضاهيها .

علينا ان نستعرض تباعاً ، بعد ان عرفنا العناصر الشرقية التي لعبت هنا دورها البارز في هذا المصير ، والعناصر الغربية التي شاركت فيه ، اقوام الاتروسك الذين افاضوا على ايطاليـــا بمدنية سطع نجمها عالياً ، وقرطاجة ، هذه المدينة الشرقية النشأة التي انشأها الاستعمار الفينقي في الغرب ، والغاليين الذين هدد تدويخهم بالقضاء على معالم روما الناشئة ، واخيراً روما التي ارست قواعد امبراطوريتها على حوض البحر الابيض المتوسط .